(إبراهيم وتبشير الرسل له والعجل الحنيذ)

(وما قاله المفسرون في ذلك)

قال تعالى في سورة هود ٦٩ (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته فاتحة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا ولتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبي من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم آواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب).

اتفق المفسرون بما فيهم الأستاذ الإمام على أن هؤلاء الرسل الذي أتوا إلى إبراهيم عليه السلام إنما هم ملائكة تشكلوا بصورة رجال حسان الوجوه. وقد استندوا في ذلك على كون هؤلاء الرسل لم يتمكنوا من الأكل حيث أن أيديهم لم تصل إليه وعلى كونهم بشروا إبراهيم بمجيء مولود له وهو وامرأته قد يأسا من ذلك وعلى كونهم قد أخبروا بوقوع العذاب بقوم لوط في وقت معين وقد حصل حسبما أخبروا بشروا وهذا دليل على كونهم ملائكة من عند الله تعالى.

(ما أفهمه في ذلك)

(وأدلتي عليه)

أقول: يتحمل أن هؤلاء الرسل الذين قد أتوا ضيوفا عند إبراهيم قد كانوا رجالا حقيقيين وإن امتناعهم عن الأكل لم يكن لعدم تمكنهم منه لكونهم ملائكة بل لكونهم قد أتوا إليه ليخبروه بما سيحصل لقوم ابن أخيه لوط من العذاب والهلاك حيث أن العادة النبيلة الجارية من قديم الزمان أنه إذا أتى أناس عند أحد من الناس في أمر يظنون أنه قد لا يجيبهم عليه أو في أمر يظن أنه مضر به أو بأحد أقاربه أو بقومه أو بقوم أحد أقاربه. فإنهم يمتنعون من تناول طعامه حتى يجيبهم عليه إن كانوا قد أتوا في طلب أمر أو حتى يزول ما عساه أن يحدث بينهم وبينه من سوء التفاهم أو المناقضة والمجادلة إن كانوا قد أتوا لإقناعه بعلم شيء يظن أنه ضرر وأذى أو ظلم واعتداء كما هو الحال هنا مما سيأتي بيانه.

وأما تبشيرهم لإبراهيم بمجيء مولود بعد بلوغ امرأته سن اليأس وإخبارهم عن وقوع العذاب بقوم لوط في وقت معين مع حصول ذلك بالفعل طبق ما أخبروا فإنه لا يدل أيضا على كونهم ملائكة غذ أنه يوجد من قديم الزمان إلى الآن كثيرون من علماء أحكام النجوم والأفلاك وحركاتها ومقابلتها وما ينشأ عن ذلك ومن علماء طبقات الأرض وبراكينها ومن علماء الزيرجة والرمل والحساب وما أشبه ذلك من يعرف أن فلان سيأتيه ولد أو بنت أو أنه سيحصل في يوم كذا بركان أو زلزال في بلد كذا أو يحصل رعود وصواعق وأمطار أو أنه سيحصل في شهر كذا حرب بين الدولة الفلانية والدولة الفلانية أو أن غدا سيكون صحوا أو مطرا أو حارا أو باردا ونحو ذلك من التنبؤات والأخبار التي تحصل تماما طبق ما أخبروا مع أنهم ليسوا ملائكة بل هم من الإنسان.

وأما نسبتهم إلى الله تعالى في قوله (رسلنا) فهذا يدل أيضا على كونهم ملائكة لأن كل من يأتي بخير أو شر لأي فرد أو أمة فهو رسول من الله لذلك الفرد أو الأمة لأن الله تعالى هو الفاعل لكل شيء (والله خلقكم وما تعملون) ورسل الله من البشر إلى البشر كثيرون جدا.

وأما تصور أن هؤلاء الرسل لو كانوا من الناس للزم عليه أن يكونوا اعلم بهذه الأمور من إبراهيم الذي هو نبي موحى إليه فهو تصور في غير محله إذ أن وظيفة الأنبياء إنما هي هداية الناس إلى الله تعالى وتبليغ وحيه وشرعه وتهذيب نفوسهم وتطهير قلوبهم وهذا لا داخل له بمعرفة أمور أخرى دنيوية كزلزال الأرض وبراكينها أو صواعق السماء وأمطارها مثلا وحينئذ فلا مانع أن يوجد في زمن إبراهيم من كان يعرف هذه الأمور ويتقن هذه العلوم وأن الله تعالى قد أرسلهم إلى إبراهيم ليبشروه بالمولود وإلى لوط لينذروا قومه بالزلزال العظيم الذي سيحصل في بلادهم وينبهوا لوطا وأهل بيته من المؤمنين إلى الخروج من هذه البلاد قبل حلول وقت الزلزال على أن (الخضر) مع كونه أقل فضلا وعلما من موسى فإنه قد علم موسى أمورا كثيرة كما هو مذكور في سورة الكهف مما لا يحتاج إلى بيانه.

ومما يدل على أن هؤلاء الرسل كانوا رجالا من الناس لا ملائكة أن هذه القصة قد وردت في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين وهي تنص على أنهم كانوا ثلاثة رجال حيث قال في الآية الثانية من الإصحاح المذكور وما بعدها (فرفع إبراهيم عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون ليده) إلى أن قال فأسرع إبراهيم إلى سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميدا أعجني واصنعي خبز ملة ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا جيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا) فعبارات التوراة هذه تدل على أنهم كانوا رجالا من الناس. وهذا لا ينافي القرآن أبدا.

كما أن أخبار التوراة بأنهم أكلوا من هذا الطعام لا ينافي قوله تعالى في سورة هود ٧٠ (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) لأن هذه الآية إنما تقيد أن إبراهيم حينما رأى أن هؤلاء الضيوف قد امتنعوا عن تناول الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة وظن أنهم آتون إليه في أمر لا يسر وهذا لا يدل على أنهم سوف لا يأكلون بعد انتهاء مهمتهم مع إبراهيم إذ أن العادة المتبعة كما قدمنا أنه إذا حضر ضيوف عند أحد من الناس وقدم إليهم طعاما وامتنعوا عن تناوله فإن صاحبة الطعام يفهم أن هؤلاء الضيوف قد آتوا إليه أما في أمر يظنون أنه قد يمتنع من إجابتهم عليه فلا يأكلون حتى يجيبهم. وإما في أمر يظن هو أنه ضرر وأذى أو ظلم واعتداء فيمسكون عن طعامه حتى يقنعوه بأنه في غاية من العدل وأنه في محله لا ظلم فيه ولا اعتداء.

والأمر هنا كذلك كما هو صريح القرآن فإن هؤلاء الرجال لما امتنعوا عن الأكل ونكرهم إبراهيم وأوجس منهم خيفة لعدم تناولهم طعامه، حينئذ أخبروه بما سيحصل لقوم ابن أخيه لوط وصار إبراهيم يجادلهم في ذلك ويقول لهم أن هذه البلاد التي تتحدثون عنها هي مسكن لوط البار والله لا يهلك البار مع الأثيم كما هو صريح قوله في المجادلة معهم في سورة العنكبوت (قال إن فيها لوطا) وكما هو صريح التوراة حيث تقول في هذا الموضوع (افيهلك البار مع الأثيم) وكما هو صرحي قوله تعالى في هذه الآية من سورة هود ٧٦ (يا إبراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك) وحينئذ فلا مانع من أن هؤلاء الرسل بعد مجادلتهم إبراهيم وبعد علمهم باقتناعه في استحقاق قوم لوط للعذاب قد أكلوا من طعامه الذي قدمه إليهم بعد زوال سوء التفاهم بينهم. والقرآن لا ينافي ذلك أبدا لأنه إنما يفيد أن إبراهيم حينما قدم إليهم الطعام وامسكوا عن إيصال أيديهم إليه أوجس منهم خيفة فطمنوه وأزالوا عنه الخوف وانه حينما جادلهم في أمر قوم ابن أخيه لوط أقنعوه في هذا لأمر وفي استحقاقهم العذاب وبشروه بنجاة لوط وأهله وانه ذهب عنه الروع. فهل هذا ينافي أنهم أكلوا من طعامه بعد زوال سوء التفاهم من بينهم وإن الذي سيقع بهم السوء ويحل بهم الشر والعذاب إنما هم القوم المفسدون الظالمون المجرمون المترفون الفاسقون الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء. والآية القرآنية إذا كانت لا تنافي آيات التوراة والإنجيل في موضع من المواضع فلا مانع من تطبيقها عليها في ذلك الموضع.